مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (33) العدد (2)2011
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (33) No. (2) 2011

الخلاف النحوي بين مدرستي البصرة والكوفة في موقفهما من السماع في اللغة

الدكتور سامي عوض*
خالد عبد الرحيم **

(تاريخ الإيداع 23 / 1 / 2011. قبل للنشر في 20 / 4 / 2011)

∇ ملخّص ∇

يتناول هذا البحث أصلاً هاماً من الأصول التي اعتمدها النحاة القدامى في بناء قواعد اللغة العربية، ألا وهو "السماع" الذي يشمل كلام الله تعالى وكلام نبيه (ص)، وما جمع علماء اللغة من أفواه الأعراب الذين وثقوا بلغتهم، وما وصلهم من الشعر العربي، ثم تناول موقف البصريين والكوفيين من هذا الأصل الهام من خلال لهجات القبائل العربية، والشعر العربي للاستفادة من جهود علمائنا القدامى في خدمة اللغة العربية، فالبصريون ضيّقوا البقعة الجغرافية للقبائل العربية وطعنوا في الكثير من لأشعار. بينما الكوفيون وسّعوا البقعة الجغرافية للقبائل العربية واحترموا كلّ ما ورد عن العرب من السماع، ورووا الأشعار ومحّصوها ونقدوها، لكنّهم سمعوا من العرب أكثر من البصريين.

الكلمات المفتاحية: السماع، الخلاف.

* أستاذ – قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.
** طالب دكتوراه – قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (33) العدد (2)2011
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (33) No. (2) 2011

Contemporary reading of the Grammatical controversy between Al-Basra and Al-Kufa schools regarding the issue of hearing in Language.

Dr. Sami Awad*
Khaled Abdul-Raheem**

(Received 23 / 1 / 2011. Accepted 20 / 4 / 2011)

∇ ABSTRACT ∇

This research studies one of the most important origins which the ancient grammarians depended upon to establish the Arabic Language Grammar, which is namely hearing which includes the Speech of Great God, and His prophets. What linguists had collected from the Arabs Speech, who trusted their own language, and what reached them from the Arabic poems. Next, this research handled the attitude of both Kofeans and Basreyien regarding this significant origin, through the Arab tribes dialects and the Arabic poems, to lead to taking advantage of our ancient linguists efforts in favour of the Arabic language. Anyhow, al-Basreyioun confined to themselves – and to their successors, the geographical area of the Arab tribes. Then, they defamed many poems. On the other hand, Kufeans widened this area of the Arab tribes. Moreover, they had already respected whatever they got from the Arabs about hearing. Then they narrated the poems after they checked and criticized them, and they travelled to hear about them everywhere.

Key words: Controversy, Hearing.

***Professor – Arabic Language Department Faculty of Literature and Human Sciences Tishreen University Syria**
****Doctorate Student / Arabic Language Dept Faculty of Literature and Humane Sciences Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدمة:

ما السماع؟ ما مكانته في اللغة العربية؟ وما موقف البصريين والكوفيين منه؟

هذا البحث يُجيب عن تلك الأسئلة، ويقدّم صورة واضحة لمسألة السماع، والخلاف بين البصريين والكوفيين في هذا المصدر الهام من مصادر لغتنا القومية، ويقدّم قراءة معاصرة له، ويعرّف القارئ الكريم على:

1- مفهوم السماع
2- أهمية السماع
3- طُرق السماع
4- مصادر السماع:
أ- القبائل التي أُخذ عنها
ب- الشعر

وأغفلت هنا القراءات القرآنية لأنني سأفرد لها بحثاً خاصاً

5- موقف البصريين والكوفيين من السماع
6- اتهام الكوفيين بوضع الشعر ونحله
7- وقفة مع شواهد سيبويه الشعرية
8- نماذج من المسائل التي اعتمد فيها الكوفيون على السماع
9- خاتمة البحث (النتائج والتوصيات)

أهمية البحث وأهدافه:

1- يسعى هذا البحث إلى إبراز الجهود الكبيرة التي بذلها علماؤنا في إرساء علم النحو، وتوطيد أركانه، وبناء قواعده على أسس ثابتة من العلم والمعرفة.

2- ويهدف إلى إظهار ما يتميّز به العقل العربي الذي كان وراء نشأة هذا العلم، من سعة أفق وإحاطة واسعة واستيعاب دقيق ونظرة حكيمة ثاقبة اتسمت بالدقة والعلميّة والموضوعية.

3- إبراز النضج العلمي والفكري الذي وصلت إليه العقلية العربية، بأسلوب هادئ متزن، يصلح أن يكون أساساً لنقاشنا في خلافاتنا الفكرية واللغوية.

منهجية البحث:

لقد اعتمد الكوفيون منهجاً، اصطلح على تسميته فيما بعد "المنهج الوصفي" وهو منهج يصف اللغة في نفسها، ومن أجل نفسها، وقد حاولنا في دراستنا هذه الاستفادة من هذا المنهج الذي أخذ به الكوفيون في النظر إلى ظواهر اللغة نظرة مجرّدة لا تعتمد التأويل، والتقدير، ولا تطعن في لهجة من اللهجات، أو تفضّلها على غيرها.

أولاً:

أ- مفهوم السماع: هو ما ثبت في كلام مَنْ يوثق بفصاحته، فشمل كلام الله تعالى وهو القرآن الكريم وكلام نبيه محمّد – صلى الله عليه وسلّم – وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده إلى أن فسدت الألسنة لكثرة المولّدين.[1]

ب- أهمية السماع: السماع هو أصل هام من الأصول التي اعتمدها النحاة في بناء قواعدهم، والعوامل التي جعلت اللغويين يلحّون في الاعتداد به،كثرة مصادره، وهي: القرآن الكريم – والحديث الشريف – وإن كان للأوائل موقف من الاستشهاد به – والشعر العربي الذي ختم بالشاعر إبراهيم بن هرمة – وكلام العرب المُستشهَد به في كلامهم.

ثانياً: طُرق السماع: اتخذ النحاة واللغويون طريقين للوصول إلى غايتهم في أخذهم المادة المسموعة، وهما:

1- الطريق الأوّل: الرواية والنقل[2]. ونعني بذلك كلّ ما وصلهم بغير طريق المشافهة في أثناء عصر التدوين. وهنا لا نجد دوراً للعقل، فالقرآن الكريم والحديث الشريف وكلام العرب شعره ونثره يُنقل كما هو وعرّفه ابن الأنباري بقوله: "اعلم أن النقل هو الكلام العربي الفصيح المنقول النقل الصحيح الخارج عن حدّ القلّة إلى حدّ الكثرة[3].

2- الطريق الثاني: المشافهة: وقد كان ذلك عبر طريقين:

أ- الذهاب إلى البادية لتلقّي اللغة عن الأعراب أنفسهم[4]، وقد وجدنا أن الخليل أخذ عن الأعراب، ودلّ الكسائي على ذلك فرحل إليهم.

ب- رحلة أهل البادية (الأعراب) إلى الحضر.

ثالثاً: مفهوم القلّة والكثرة: إنّ السماع يختلف كثرة وقلّة، فماذا يصنعون بالمسموع الفرد. أيُقبل ويُحتجّ به أم لا؟[5].

فشرط ابن الأنباري أن يكون المنقول خارجاً عن حدّ القلّة إلى حدّ الكثرة، وهو أحد قسمين:

أ- المتواتر، وشرطه "أن يبلغ عدد النقلة إلى عدد لا يجوز على مثله الاتفاق على الكذب، كنقلة القرآن، وما تواتر من السُنّة الشريفة، وكلام العرب.....[6].

ب- الآحاد: والمقصود به نقل الواحد، ولا يُشترط أن يوافقه في النقل غيره بشرط أن يكون عدلاً رجلاً كان أم امرأة، حرّاً كان أم عبداً[7]. وهنا يختلف البصريون والكوفيون فالبصريون يحدّدون القبائل التي وثقوا بها وبفصاحتها، والكوفيون توسّعوا في الأخذ عن القبائل العربية، وسمعوا رواية الفرد وغيره من الأمور التي سنقف عندها من خلال القبائل ومصادر السماع.

رابعاً: مصادر السماع:

1- اللهجات العربيّة

---

[1] (الاقتراح في علم أصول النحو للسيوطي ص14 – دار المعارف سوريا حلب، من دون تاريخ)

[2] (نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء ص55 لأبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري. تح: د. إبراهيم السامرائي، مكتبة الأندلس، بغداد، ط1971/2م)

[3] (ينظر لمع الأدلة ص81 لأبي البركات الأنباري – تحقيق: سعيد الأفغاني. مطبعة الجامعة السورية، 1957م)

[4] (في علوم اللغة وأنواعها لعبد الرحمن جلال الدين السيوطي، ج1 ص121 المزهر، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه)

[5] (ينظر الاقتراح ص22)

[6] (لمع الأدلة ص34)

[7] (لمع الأدلة ص35، وينظر المزهر ج1 ص114)

–تعريف اللهجة: هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة[8].

–العلاقة بين اللهجة واللغة: أمّا العلاقة بين اللهجة واللغة فهي علاقة الخاص بالعام، لأنّ بيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع أو أشمل تضمّ عدّة لهجات لكلّ منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعاً في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسّر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض[9].

والحقيقة أن النحويين لم يحتجّوا باللهجات العربية كلّها، وإنّما تخيّروا بعضها، وهذا ما نجده في الأخذ عن بعض القبائل العربيّة وترك الأخذ عن بعضها، وإن كانوا مُتفقين على أنها حجّة، وهذا واضح في كتاب الخصائص، فقد عقد صاحبه باباً سمّاه: "اختلاف اللغات وكلّها حجّة"[10].

وأثبت ذلك ابن نوفل فقال: سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء: أخبرني عمّا وضعت ممّا سمّيت عربية، أيدخل فيه كلام العرب كلّه؟ فقال: لا. فقلت: كيف تصنع فيما خالفك فيه العرب وهم حجّة؟ فقال: أحمل على الأكثر، وأسمّي ما خالفني لغات[11].

القبائل التي أخذوا عنها:

1- قريش: وهي أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان في النطق.

2- قيس وتميم وأسد: فإنّ هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أُخذ ومعظمه[12]. وقد سكنوا شمال الجزيرة العربية.

3- هُذيل: وتسكن شمال شرق مكة المكرمة، وبعض كنانة وتسكن مشال غرب مكة المكرمة، وبعض الطائيين في الشمال الغربي من الجزيرة العربية[13].

ولم يُؤخذ عن الحضر وسكان البراري المجاورين للأمم الذين حولهم وهذه القبائل هي:

لُخَم وجذام (المناذرة) لمجاورتهم الفرس. وقد ذكر السيوطي أنّ لخم وجذام كانتا مجاورتين لأهل مصر والقبط[14] ونقل ذلك سعيد الأفغاني (في أصول النحو ص22) وغيره من المحدثين[15]. ولكن قبيلة لخم وهم المناذرة سكنوا العراق قرب الفرس[16].

4- قضاعة وغسّان وإياد كانت صلاتهم بغير العربية

5- تغلب والنمر

---

[8] (فصول في فقه اللغة د. رمضان عبد التواب ص72، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثالثة 1408هـ 1987م)

[9] (المرجع السابق ص72)

[10] (الخصائص ج2 ص10 لأبي الفتح عثمان بن جني ط2، حققه محمد علي النجار – دار الهدى بيروت)

[11] (المزهر ج1 ص184-185)

[12] (ينظر الاقتراح ص19)

[13] (ينظر في أصول النحو. سعيد الأفغاني ص19 دار الفكر – مطبعة جامعة دمشق ط1383/3 هـ واللهجات العربية في القراءات القرآنية د. فاتن خليل محجازي ص74-75 دار النشر الدولي ط2010/1م ودراسات في فقه اللغة د. صبحي الصالح ص60 ط2/ المكتبة الأهلية – بيروت 1382هـ)

[14] (الاقتراح ص19)

[15] (في أصول النحو سعيد الأفغاني ص22 وينظر أصول النحو العربي د. محمود أحمد نحلة – دار العلوم العربية – بيروت ط1/ 1407هـ)

[16] (ينظر اللهجات العربية في القراءات القرآنية د. فاتن محجازي ص75)

6- بكر
7- عبد القيس
8- أهل اليمن
9- بنو حنيفة[17]

ومن خلال المصادر والمراجع نجد البصريين والكوفيين يشتركون في الأخذ عن القبائل الآتية:

أسد، وتميم، وقيس، وكنانة، وهُذيل، وطيّئ، كما تشترك المدرستان في السماع من بطون تؤول إلى بعض القبائل السابقة مثل: باهلة وسُليم وعُقيل وغنى ونمير، وتشتركان في السماع من قبائل يشملها الحظر كربيعة وبعض قبائل اليمن. ولكن الكوفيين توسّعوا في السماع فسمعوا من قبائل وبطون أخرى مثل: بني حنيفة، وبني كلب، والحطمية، وحوران، وحضرموت[18].

والواقع فإنَّ الفريقين كليهما مخطئان في الأخذ عن القبائل العربية، فالهدف من ذلك كان وضع قواعد اللغة الفصحى، فالكوفيون توسّعوا في الأخذ عن القبائل، والبصريون ضيّقوا ذلك، فكان المعيار الجغرافي هو الأساس الذي اعتمدوه في الأخذ عن تلك القبائل، فكلما ابتعدت القبيلة عن الاختلاط بالأمم المجاورة كانت أفصح من تلك التي خالطت الأمم المجاورة.

ولم يكن الفرق بين اللغة المشتركة – أو اللغة الأدبيّة – واللهجات واضحاً في أذهان اللغويين في هذه الحقبة من التاريخ وضوحاً تاماً ولذلك سعى البصريون للأخذ عن قبائل معينة، لكنهم لم يفرّقوا فيما أخذوه عن هذه القبائل بين اللغة المشتركة ولهجات الخطاب. ومن هنا جاء الخلط والاضطراب ورأيناهم يؤوّلون كلّ مثال شذّ عن قواعدهم. ولم يكن الكوفيون أقلّ منهم حظّاً في الاضطراب والخلط لأنهم أخذوا اللغة عن كل العرب، ولم يفرّقوا كذلك بين اللغة المشتركة ولهجات الخطاب[19].

ومعيار الأخذ عن القبائل التي لم تتأثر بلغات الأمم المجاورة لم يكن دقيقاً، لكننا نجد فئة من أهل الحضر قد صحت عند اللغويين والنحاة سليقتهم واستقامت ألسنتهم بما حفظوا من قرآن وشعر ومرويّات مأصورة، ومنهم الشاعر عمر بن أبي ربيعة وجرير والفرزدق والأخطل والكميت وبشار ورؤبة والعجّاج وغيرهم[20].

وإذن ليس صحيحاً ما قرره السيوطي فيما نقله عن أبي النصر الفارابي من كتابه – الألفاظ والحروف – أنه "لم يؤخذ عن حضري قط"[21].

فقد أخذ النحاة عن أهل الحضر كما أخذوا عن أهل البادية[22].

ولو كان عامل الاختلاط بالأمم المجاورة صحيحاً لما أخذ بلهجة قريش لأنها من أكثر القبائل العربية اختلاطاً بالأمم المجاورة، فوجود بيت الله الحرام فيها يجذب إليها الناس من كلّ حدب وصوب، قبل الإسلام وبعده. وأهلها يعملون بالتجارة فيرحلون إلى الشام واليمن ويمرّون على قبائل عديدة، ويتعاملون مع أناس كثر، لكن هذا الاختلاط لم

---

17 (ينظر الاقتراح ص22 ودراسات لغوية د. عبد الصبور شاهين مؤسسة الرسالة ص62)

18 (ينظر القياس النحوي بين مدرستي البصرة والكوفة – محمد عاشور السويح ص41 وما بعدها ط1986/1م)

19 (ينظر فصول في فقه اللغة د. رمضان عبد التواب ص107 ط1408/3هـ مكتبة الخانجي بالقاهرة)

20 (ينظر أصول التفكير النحوي د. علي أبو المكارم ص27، طبع دار الثقافة، بيروت 1973م، وأصول النحو العربي د. محمود نحلة ص59)

21 (الاقتراح ص19).

22 (ينظر أصول التفكير النحوس د. علي أبو المكارم ص29)

يؤثر على نقاء فصاحتها، بل كان عاملاً إيجابياً فكانت تنتقي من اللهجات الأخرى الأفصح، وتتنزّه عن العيوب الموجودة في تلك اللهجات كالكشكشة والعنعنة وغيرها.

2- **الشعر:** الشعر العربي أساس من أسس الاستشهاد اللغوي لأنّه ديوان العربية الذي حفظ ثروتها، حين لم يكن العرب يعرفون الكتابة وسيلة لتدوين المعارف والعلوم، فكان الشعر لسهولة حفظه، وحلاوة موسيقاه أقرب الوسائل إلى عقول العرب وقلوبهم؛ وكان الشعر الجاهلي سجلاً يحوي معاني ألفاظ اللغة التي استعملها القرآن الكريم، فإن ذُكرت كلمة غريبة عنهم فيه وجدوها في الشعر ففهموا معناها. وما خفي عنهم من معانٍ جديدة تولّت السُّنة النبوية بيانها حين عجزت لغة الشعر الجاهلي عن ذلك[23].

وقد كان للغويين موقف من العصور التي مرّ بها الشعر العربي، وكذلك التمييز بين الشاعر البدوي والحضري إلا أنّهم اعتمدوا على معيار العصور أكثر من غيره، وقد قُدّر لهذا العرف العلمي الذي ساد بين النحاة أن يتغلّب فيه – بفعل العادة المتوارثة – مقياس العصر على المادة اللغوية باعتبار القديم خيراً من المحدث.

تقسيم الشعر إلى طبقات: قسّموا الشعر إلى أربع طبقات:

1- طبقة الجاهليين
2- طبقة المخضرمين
3- طبقة المتقدمين: عاشوا في صدر الإسلام ولم يدركوا الجاهلية كجرير والفرزدق.
4- طبقة المولّدين، ويُقال لهم المحدثون كبشار بن برد، وأبي نواس. وزاد بعضهم طبقتين هما:
5- طبقة المحدثين– وقصر الطبقة الرابعة على المولّدين – وهم الذين جاؤوا بعد المولّدين كأبي تمام.
6- طبقة المتأخرين: جاؤوا بعد المحدثين كالمتنبي[24].

موقف الكوفيين من السماع: إن كان البصريون قد جدّدوا القبائل التي أخذوا عنها وضيّقوا الرقعة الجغرافية، فإنّ الكوفيين قد توسّعوا في الأخذ عن قبائل أخرى، فأخذوا عن أعراب سواد الكوفة من تميم وأسد وأعراب سواد بغداد من الحطمية الذين غلّطهم البصريون ولحنوهم، بل لقد اعتدوا بما ندر من شواهد وما شذّ من رواية، وقبلوا كل ما صدر عن عربي[25]. ومن هنا طعن بعض الباحثين في منهج الكوفيين لتوسّعهم في الأخذ عن القبائل العربية، فقال د. عبد الرحمن السيّد: " أما الكوفيون فقد نشأت مدرستهم بعد أن كثر اختلاط العرب بغيرهم وحمل الأعاجم إلى اللغة رطانة غريبة عنها، دخيلة عليها. ويأخذون بالشاهد الواحد فيبنون عليه حكمهم ويستنبطون القاعدة"[26]. ويرى محمد عاشور السويح أنّ الكوفيين "إذا كانوا قد توسعوا في السماع من قبائل كثيرة، فإنّ البصريين قد أخذوا بشكلٍ من أشكال التوسع قد يقل عن الكوفيين، ولكنهم سمعوا من القبائل الموجودة في أطراف الجزيرة"[27].

---

[23] (ينظر دراسات لغوية د. عبد الصبور شاهين ص87).

[24] (ينظر أصول النحو د. محمود نحلة ص60-61، ومدرسة البصرة النحوية د. عبد الرحمن السيد ص241، ومسالك القول في النقد اللغوي صلاح الدين الزعبلاوي ط1/1404هـ الشركة المتحدة للتوزيع ص11، ودراسات لغوية د. عبد الصبور شاهين ص89 وفصول في فقه اللغة د. رضا عبد التواب ص101).

[25] (ينظر القياس النحوي بين مدرستي البصرة والكوفة محمد عاشور السويح ص70 وما بعدها).

[26] (ينظر مدرسة البصرة النحوية نشأتها وتطورها، د. عبد الرحمن السيد ص152 دار المعارف بمصر، القاهرة ط1/ من دون تاريخ).

[27] (القياس النحوي بين مدرستي البصرة والكوفة محمد عاشور السويح ص271).

وقد دافع د. مهدي المخزومي عن الكوفيين فقال: " لا يعني أخذهم باللهجات التي أباها البصريون أنّهم كانوا يترخّصون كلّ الترخص في قبول اللهجات واللغات، ولكنّهم وثقوا بأولئك ورأوا لغاتهم تمثّل فصيحاً من اللغات لا يُصح إغفاله وخاصة بعدما رأوها متمثّلة في القراءات السبع...."[28].

والمقياس الصحيح في الأخذ عن القبائل ما نُقل عن ابن جنّي "والصواب الأخذ بما عُرف صحته ولم يظهر فساده ولا يُلتفت إلى احتمال الخلل فيه ما لم يّبِنْ"[29]. وقد أبان ابن جنّي علّة ترك الأخذ عن أهل المدر والأخذ عن أهل الوبر أنّ ذلك يرجع إلى ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد، ولو علم أنّ أهل مدينة باقون على فصاحتهم ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر[30].

وعقد "باب اختلاف اللغات وكلّها حجة" فقال: " وليس له أن تردّ إحدى اللغتين بصاحبتها لأنها ليست أحقّ بذلك من رسيلتها"[31].

فموقف الكوفيين من القبائل العربية يتفق بالإضافة إلى تأكيد ابن جنّي لموقفهم – مع وجهة نظر علم اللغة الحديث – يقول الدكتور رمضان عبد التواب: " فكان الكوفيون أشدّ احتراماً لما ورد من لهجات القبائل، لأن كل لهجة تمثّل حقلاً لغوياً لا يصح إهداره ولاشك أنّ لهجة من تلك اللهجات المغمورة قد أمدت الفصحى بروافد غنية أضافت إليها معنىً في الدلالة، والمستوى النحوي والصرفي"[32].

ولا يعني ذلك أنّ الكوفيين عوّلوا على كل مسموع ولو صحّ أنّهم يأخذون بكل شاذ ويقيسون عليه لما استقام لهم أصل أو حكم أو قياس، وقصارى ما في الأمر أنّهم اعتمدوا مسموعاً وقاسوا عليه فقد اعتدوه لغة يُحسن الأخذ بها، لأنها لغة قوم من العرب لا يرقى الشك إلى فصاحتهم ولو قلّت. فهم لا يعوّلون على كل مسموع فقد تخيّر الكسائي والفراء من فصيح الشعر شواهد ليست أدنى منزلة من شواهد سيبويه، ولها من طابع الفصاحة وميسم البداوة ما لا خفاء به[33].

فلو قعّد النحاة قواعدهم بالاعتماد على بعض القبائل لضيّقوا واسعاً. ومن هنا كان منهج المدرسة الكوفية أصح من منهج المدرسة البصرية – في السماع – التي ضيّقت على نفسها في الأخذ من عدد من القبائل العربية، وإهمال ما عداها، أو عدّ كلام بعضها شاذاً.

يقول الدكتور عبده الراجحي: " إنّ مدرسة الكوفة قد عُرفت بأنها مدرسة وصفية، وإن كان ذلك لا ينبغي أن يكون حكماً عاماَ، لأنّ الأعمال الأولى لدى أئمة المدرستين اختلط فيها الوصف والتفسير ولكن الملاحظ أنه لم تصلنا كتب نحوية مُتخصصة تُنسب إلى رجال الكوفة الأوائل وإنّما وصلتنا كتب تتناول النحو من خلال الاتصال بالنصوص ككتاب الفرّاء " معاني القرآن" وقد كان هذا الاتجاه حقيقاً أن يطبع العمل في أغلبه بطابع الوصف"[34]. ونحن لا نزال

---

[28] مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ص331-332 ، د. مهدي المخزومي – دار الرائد العربي – بيروت ط1406/3هـ.

[29] الاقتراح ص25.

[30] (ينظر الخصائص ج2 ص5).

[31] الخصائص ج2 ص10.

[32] (فصول في فقه اللغة ص107 د.رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة ط1408/3هـ).

[33] (ينظر مع النحاة وما غاصوا عليه من دقائق اللغة وأسرارها ص82 صلاح الدين الزعبلاوي – منشورات اتحاد الكتاب العرب 1992م. ومصادر الشعر الجاهلي د. ناصر الدين الأسد وقيمتها التاريخية ص434 دار المعارف بمصر ط1969/4م).

[34] (النحو العربي والدرس الحديث ص58-59 د. عبده الراجحي دار النهضة العربية – بيروت 1979م).

نذكر عبارة الكسائي حين سئل في مجلس يونس عن قولهم: لأضربنّ أيُّهم يقوم، لمَ لا يقال: لأضربنّ أيَّهم؟ فقال: أيٌّ هكذا خُلقت[35].

ويقول د. الراجحي: ولسنا نعرف تعبيراً أدلّ على الوصف المحض من تعبيره "أي هكذا خُلقت"[36].

أمّا الشعر فإن النحاة الأوائل لم يهتمّوا بقائل البيت وذلك لثقتهم بالراوي ولانصراف ذهنهم إلى الاهتمام باللغة ومناسبة هذا البيت الذي سمعوه للقاعدة النحوية التي أرادوا أن يسوقوا على صحتها أكثر عدد ممكن من الشواهد الشعرية أو النثرية، مادام ينقل اللغة عن ثقة، وقد ذكر اللغويون أن الشعر العربي كثير ولكنّه لم يصل إلينا كاملاً فقد ضاع الكثير منه، وربما يكون وراء الشاهد المذكور شواهد كثيرة ولذلك يمكن القول: إنّ استقصاء البصريين كان ناقصاً.

–اتهام الكوفيين بوضع الشعر ونحله: إنّ اتهام البصريين للكوفيين بوضع الشعر ونحله لم يكن مردّه إلى أنّ الكوفيين يصنعون وينحلون حقّاً وإنما كان مردّ بعضه لعدة أسباب منها:

1- المنافسة العلمية وما قد تسببه أحياناً من خصوماتٍ وقتيّة.
2- اختلاف مصادر الفريقين.
3- اختلاف منهجيهما.

قال ابن سلام في حديثه عن الأسود بن يعفر: " وقد علمت أنّ أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروي، ويتجوّزون في ذلك بأكثر من تجوزنا"[37].

وقد كان علماء المدرستين البصرية والكوفية ينقدون ويمحصون وكانوا أيضاً لا يقبلون كلّ ما يسمعون أو يقرؤون، فالكوفيون على توسّعهم في المصادر وتكثّرهم في الرواية – أسقطوا بعض القصائد التي رواها الأصمعي لامرئ القيس وأنكروها فلم يروِ المفضّل سبع قصائد ومقطعات رواها الأصمعي، وإسقاطها من روايته دليل على أنّه لم يعدّها من شعر امرئ القيس الصحيح في رأيه، وكذلك روى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء قصيدة لامرئ القيس مطلعها:

أماويّ هل لي عندكم من مُعرَّس ... أم الصَّرْمَ تختارين بالوصل نَيْئَس

فأنكرها أبو عمرو الشيباني – أو غيره من الكوفيين – وقال: إنها ليست لامرئ القيس، وإنما هي لبشر بن أبي خازم[38].

ويلخّص د. ناصر الدين الأسد هذا الموضوع فيقول: لقد كانت كثرة رواية الكوفيين مطعناً عليهم عند البصريين فاتّهموهم بالتكثّر والتزيّد، غير أننا رأينا أنّها كثرة لا تكثر، وزيادة لا تزيّد؛ وأنّ الثقات الأثبات من الكوفيين كانوا كالثقات الأثبات من البصريين ولا يعني أنّ كل ما رواه الفريقان صحيح مقطوع بصحته، لا سبيل إلى الشك فيه وإنّما هو بحاجة للدراسة والمقارنة – ولكن نؤكد أنّهم لم يكونوا كذّابين يتعمّدون الكذب ولا وضّاعين يحترفون الوضع فروايتهم في

35 (ينظر الخصائص ج3 ص292).
36 (النحو العربي والدرس الحديث د. عبده الراجحي ص59).
37 (طبقات فحول الشعراء ص123 لابن ملاّم تح: محمود شاكر دار المعارف بمضر 1956م ومصادر الشعر الجاهلي د. ناصر الدين الأسد ص437).
38 (مصادر الشعر الجاهلي، د. ناصر الدين أسد ص512)

مجموعها رواية صحيحة أو قريبة من الصحة. وأنّهم قد أفرغوا جهدهم وبذلوا أقصى طاقتهم في النقد والتمحيص حتى استقام لهم ما استقام من شعر اطمأنوا إلى صحته وفقاً لمنهجهم العلمي فرووه، ورواه عنهم تلاميذهم حتى وصل إلينا...[39].

فالشعر كثير عند العرب قال أبو عمرو بن العلاء: "ما انتهى إليكم ممّا قالت العرب إلاّ قلّة ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير". وقال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –: "كان الشعر علم القوم ولم يكن لهم علم أصح منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم، لهيت عن الشعر وروايته.."[40]

–**<u>وقفة مع شواهد سيبويه الشعرية:</u>** إن كان الكوفيون قد استشهدوا بأبيات من الشعر لا يُعرف قائلها كما في مسألة إظهار (أنْ) بعد (كي)، وجواز دخول اللام في خبر (لكنّ) وجواز مدّ المقصور للضرورة[41].

فإن سيبويه قد استشهد بأبيات كثيرة من الشعر لا يعرف قائلها[42]. هذا بعد أن حقّق علماؤنا عدداً كبيراً منها، فقد أوقعت رواية الجرميّ الدارسين في الوهم، فذكر أنّ الأبيات التي لا يُعرف قائلها خمسون بيتاً فقد روى صاحب خزانة الأدب قوله: " نظرت في كتاب سيبويه، فإذا فيه ألف وخمسون بيتاً، فأمّا الألف فقد عرفت أسماء قائليها فأثبتها، وأمّا الخمسون فلم أعرف أسماء قائليها[43].

وقام الدكتور رمضان عبد التواب بنسبة بعض الأبيات إلى قائليها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً من خلال مراجعته لمصادر الأدب العربي، بالإضافة إلى جهود محقق (الكتاب) وبعد تلك الجهود ما يزال في (الكتاب) عدد من الأبيات لا نعرف قائليها[44].

ولم أذكر ذلك طعناً في كتاب سيبويه، فهو أول أثر مادي لعلم النحو العربي ضمّ ما وصلت إليه قرائح العلماء السابقين، وإنما ذكرت ذلك لألتمس العذر لعلماء المدرسة الكوفية في ذلك، فقد تناقل الناس الشعر مشافهة زمناً طويلاً، ثم جاء عصر التدوين وربّما حفظ السامع بيتاً أو عدّة أبيات وقد نسي قائلها، فما الضير في ذلك؟!

–**<u>نماذج من مسائل السماع عند الكوفيين، مخالفين البصريين:</u>**

1– اختلافهم مع البصريين في ضمير الشأن، فعند البصريين لا يُفسَّر إلاّ بجملة، وإذا بدا لهم نصٌّ فصيح يخالف هذا الأصل تأوّلوه حتى يطرد لهم القياس. أمّا الكوفيون فقد أجازوا أنْ يُفسَّر أحياناً بالمفرد، اعتماداً على بعض ما سمعوه من العرب ففي قوله تعالى: {وهو محرّم عليكم إخراجهم}*. قال البصريون "هو" ضمير شأن مبتدأ، ومحرّم: خبر مقدّم، وإخراجهم: مبتدأ مؤخر. والجملة كلها خبر "هو" وقد آثروا أن يعود الضمير إلى متأخر لفظاً على

---

39 (ينظر مصادر الشعر الجاهلي د. ناصر الدين الأسد 513).

40 (الخصائص ج1 ص386).

41 (ينظر الاقتراح ص27–28).

42 (ينظر فهرست الكتاب لسيبويه ط2006/4م).

43 (خزانة الأدب، تأليف: عبد القادر بن عمر البغدادي، لتحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون،ج1 ص17، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط1418/4هـ، وينظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص77 تح: محمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة السعادة 1373هـ، وقد تناول هذا الموضوع د. رمضان عبد التواب في كتابه "بحوث ومقالات في اللغة" بعنوان: أسطورة الأبيات الخمسين في كتاب سيبويه).

44 (ينظر بحوث ومقالات في اللغة د. رمضان عبد التواب ط1408/2هـ مكتبة الخانجي بالقاهرة ص93 وما بعدها).

* البقرة الآية 85

أن يعربوه إعراب الكوفيين والذي يخرج على القاعدة التي يريدون لها الاطراد، فهم يرفضون أن يكون (محرّم) خبراً لضمير الشأن وأن يكون (إخراجهم) نائباً عن الفاعل[45].

2- ما نُقل عن الفرّاء أنّه يُجيز قياساً أن يُنسب إلى : عدة وأمثالها بردّ الواو المحذوفة، فيقول: عِدَوى، وزنوى. في النسب إلى (عدة وزنة) وحمله على ذلك ما رُوي عن ناس من العرب: عدوي، في عدة، فقاس عليه غيره[46].

3- وسنّ الفراء أصلاً كتب له الرسوخ في قواعد اللغة العربية، هو أن يكون "غدوة" علماً على الوقت المعلوم في اليوم. ولذلك عومل معاملة الممنوع من الصرف، ولم يكن له ما يعتمد عليه إلاّ قول أبي الجرّاح العقيلي: " ما رأيت لَغُدْوَةَ قطُّ" يعني غداة يومه[47].

4- أجاز ابن مالك أن يُجمع بين الضميْرَيْن المتصل والمنفصل إذا اختلفا إفراداً وتأنيثاً، محتجّاً بما نقله الكسائي عن بعض العرب وهو قولهم: هم أحسن الناس وجوهاً وأنضرُهموها[48].

5- استشهد ابن هشام على مجيء (أم) بمعنى (بل) بما رواه الفراء عن العرب، وهو قولهم: "هل لك قِبَلنا حقّ، أم أنت رجل ظالم، يريدون، بل أنت رجل ظالم"[49].

6- ومن المسائل التي أُخذ فيها بقول الكوفيين إعراب الأسماء الستة فقد بيّنوا أنّ هذه الأسماء عندما تكون مفردة تعرب بالحركات (الضمة والفتحة والكسرة) فإن أضيفت أُعربت بالحروف فتقول: "هذا أبوك، ورأيت أباك، ومررت بأبيك". والبصريون أيضاً يقرّون هذا الإعراب، ولكنهم في التعليل لهذه الظاهرة يقولون إن الواو إشباع للضمة، والألف إشباع للفتحة، والياء إشباع للكسرة[50].

7- خلافهم في (نِعْمَ وبئس) فقد قال البصريون ومعهم الكسائي: إنّهما فعلان ماضيان جامدان، وقال الكوفيون إنّهما اسمان، واعتمدوا في ذلك على ما سُمِع عن العرب من شعر ونثر، كقول حسان بن ثابت:

ألستُ بنعمَ الجارُ يؤلف بيتَه   أخا قلّة أو مُعدمَ المال مُصرما

وقول إعرابي بُشّر بمولودة، فقيل له: نعم المولودة مولودتك! فقال: " والله ما هي بنعم المولودة، نصرتها بكاء وبرّها سرقة".

فدخول حرف الجر (الباء) عليها دفع الكوفيين للقول باسميتها، وكذلك سُمِع نداؤها (يا نعمَ المولى).

ويقدّم البصريون أدلتهم على أنهما فعلان كاتصال الضمير المرفوع بهما، وتاء التأنيث الساكنة، فكما اختلفت القبائل العربية في إعمال حروف وإهمالها عند آخرين، نستطيع أن نقول هنا بشيء من الاطمئنان – إنّ هذا من

---

45 (ينظر البحر المحيط 292/1 تفسير أبي عبد الله محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي الشهير بأبي حيان. نشر مكتبة ومطابع النصر الحديث – الرياض السعودية).

46 (شرح شافية ابن الحاجب ج2 ص63 تأليف الشيخ رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي... تح: محمد نور الحسن وآخرون – دار الكتب العلمية – بيروت 1395هـ).

47 (ينظر معاني القرآن للفراء ج2 ص139، وأصول النحو العربي د. محمد خير الحلواني ص46-47 جامعة تشرين اللاذقية 1979م).

48 (أصول النحو العربي د. محمد خير الحلواني ص47).

49 (مغني اللبيب ص66 عن كتب الأعاريب لجمال الدين بن هشام الأنصاري تح: د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله – دار الفكر ط1979/5م. وأصول النحو العربي د. الحلواني ص48).

50 (ينظر الإنصاف في مسائل الخلاف كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري النحوي ومعه الانتصاف من الإنصاف لمحمد محيي الدين عبد الحميد المسألة الثانية ج1 ص35 – دار الطلائع – القاهرة).

اختلاف القبائل العربية فبعضها يستخدم (نعم وبئس) اسمين، وآخرون يستخدمونهما فعلين[51]. ولكن من التيسير على المتعلمين أن تكون (نعم وبئس) فعلين لا اسمين.

خاتمة:

ويمكن أن نقول في نهاية البحث: إنّ الكوفيين أشدّ احتراماً لما ورد عن العرب من لهجات القبائل العربية، فلم يهملوا شيئاً، لأن كل لهجة – في رأيهم – من اللهجات العربية تمثّل حقلاً لغوياً لا يُصح إهداره أو الجور عليه. وكل لهجة من تلك اللهجات رفدت اللغة الفصحى – المشتركة – بروافد غنية أضافتها إلى متنها في الدلالة والمستوى الصرفي والنحوي.

وإن كان يُؤخذ على علماء الكوفة جمع المادة اللغوية عن القبائل العربية جميعها، دون تحديد معيار معيّن للأخذ عنهم.

وقد أثبت البحث أن مدرسة الكوفة هي مدرسة وصفية؛ لأنّ نظرة أصحابها إلى اللغة يغلب عليها طابع الوصف.

وبيّن البحث أن الخلاف النحوي بين المدرستين – في أصله – ليس خلافاً بالمعنى الحقيقي للخلاف، وإنّما هو اختلاف في وجهات النظر لا يعدو أن يكون مظهراً من مظاهر التنافس العلمي الجاد بين أصحاب المدرستين، فجاء نتيجة طبيعية لاختلاف العلماء في المصادر التي أخذوا عنها، فقد وجدنا البصريين يحددون القبائل التي يرضون الأخذ عنها، بينما الكوفيون لم يقفوا عند تلك الحدود، بل توسعوا في الأخذ عن قبائل أخرى.

المراجع:

1- أصول التفكير النحوي، علي أبو المكارم، طبع دار الثقافة، بيروت 1973م
2- أصول النحو العربي، محمد خير الحلواني، جامعة تشرين، اللاذقية 1979م
3- أصول النحو العربي، محمود أحمد نحلة، دار العلوم العربية، بيروت ط1/ 1407م
4- الاقتراح في علم أصول النحو، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي(ت 911هـ)، دار المعارف، سوريا، حلب.
5- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، ومعه الانتصاف من الإنصاف، تأليف: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع.
6- البحر المحيط، تفسير أبي حيان، أبي عبد الله محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي الشهير بأبي حيان، نشر مكتبة ومطابع النصر الحديث. الرياض، السعودية.
7- بحوث ومقالات في اللغة، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة ط1408/2هـ
8- خزانة الأدب ولب لُباب العرب تأليف: عبد القادر بن عمر البغدادي 1030 – 1093 ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط1418/4هـ – 1979م

[51] (ينظر الإنصاف المسألة 14 ج1 ص97 وما بعدها).

9- الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجّار. دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية.

10- دراسات في فقه اللغة. صبحي الصالح، المكتبة الأهلية، بيروت الطبعة الثانية 1382هـ - 1962م

11- دراسات لغوية (القياس في الفصحى، الدخيل في العامية) عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، ط1406/2هـ

12- شرح أبيات سيبويه، لأبي محمد بن أبي سعيد السيرافي، حققه وقدّم له د. محمد علي سلطاني. دار المأمون للتراث، دمشق. بيروت 1979م

13- شرح شافية ابن الحاجب مع شرح شواهدها، لرضي الدين محمد الحسن الاسترابازي، حققهما: محمد نور الحسن، محمد الزفزاف، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العامة، بيروت 1395هـ - 1975م

14- طبقات فحول الشعراء، لأبي عبد الله محمد بن سلام الجمحي (139 - 232هـ) تحقيق: محمود شاكر، دار المعارف بمصر 1952م

15- طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة السعادة 1373هـ

16- فصول في فقه اللغة، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة ط1406/3هـ - 1987م

17- في أصول النحو، سعيد الأفغاني، دار الفكر. مطبعة جامعة دمشق ط1383/3هـ - 1964م

18- القياس النحوي بين مدرستي البصرة والكوفة. محمد عاشور السويح. الدار الجماهيرية للنشر ط1986/1م

19- الكتاب، سيبويه، أبو بشر عمرو عثمان بن قنبر (ت 180هـ). تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون. الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة ط1476/4هـ - 2006م

20- لمع الأدلة، لأبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري (ت 577 هـ) تحقيقة: سعيد الأفغاني. دمشق 1377هـ

21- اللهجات العربية في القراءات القرآنية. د. فاتن خليل محجازي. دار النشر الدولي، المملكة العربية السعودية، الرياض. ط1431/1هـ

22- مدرسة البصرة النحوية، نشأتها وتطورها. د. عبد الرحمن السيد. دار المعارف بمصر، القاهرة. ط1 من دون تاريخ.

23- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911هـ) شرح: محمد أحمد جاد المولى. علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، من دون تاريخ.

24- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. د. ناصر الدين الأسدي. دار المعارف بمصر. ط1969/4م

25- معاني الثرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت 207هـ) عالم الكتب بيروت. ط1980/2م

26- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين بن هشام الأنصاري. تحقيق: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله. مراجعة: سعيد الأفغاني. دار الفكر، بيروت ط1979/5م

27- النحاة وما غاصوا عليه من دقائق اللغة وأسرارها. صلاح الدين الزعبلاوي. منشورات اتحاد الكتّاب العرب 1992م

28- النحو العربي الدرس الحديث. د. عبده الراجحي. دار النهضة العربية، بيروت 1979م

29- نزهة الألباء في طبقات الأدباء. أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري. تحقيق: د. إبراهيم السامرائي. ط1970/2م